

من ذكريات الحركة القومية العربية

تفضل الأستاذ الجليل الأمير مصطفى الشهابي فأذن لي بنشر هذا الفصل الرائع من تاريخ الحركة القومية العربية ،
فله من قراء هذه المجلة أجزل الشكر وأطيب التناء .
محمد شفيق غربال

حلقة الشيخ طاهر الجزائري :

كانت دمشق في النصف الثاني من القرن الماضي غارقة في سبات عميق
يحرص عمال الترك على ألا يوقظوها منه . لما في يقظتها وطموحها إلى المجد
من أضرار تلحق بحكمهم الاستبدادي ، وبتسلطهم الاستعماري على بلاد
العرب .

ونجد أنه عند ما كان مدحت باشا والياً على الشام برز في دمشق رجل
نابغة في علمه وتفكيره ونشاطه وإخلاصه وهو الشيخ طاهر الجزائري .
لقد كان الشيخ طاهر ضليعاً بالعلوم العربية والدينية ، ومجيداً للتركية وعارفاً
للفارسية ، ومطلعاً على مجمل العلوم العصرية . وكانت له صلة صداقة برئيس
ديوان الولاية التركي واسمه بهاء بك ، ففي أحاديث الشيخ معه أقنعه بضرورة
افتتاح مدارس حكومية تدرس العلوم بالعربية ، وتعنى بتدريس آداب هذه
اللغة . واحتج لرأيه هذا بأن مدارس الإرساليات الأجنبية من بروتستانتية
وكاثوليكية كلها تدرس العربية وآدابها ، خلافاً للمدارس الحكومية العثمانية .
فإذا طالت هذه الحال نشأ في المدارس الأجنبية نشء له تفكير خاص ومذاهب
سياسية لا تسر الدولة . ولذلك يجب مقاومة هذه النزعات بالطريقة التي
يتبعها الأجانب .

كان بهاء بك ، فاضلاً واسع التفكير ، سرعان ما اقتنع بصحة هذا الرأي ، وأقنع الوالي مدحت باشا باتخاذ الأساليب الآيلة إلى تحقيقه . وكان مدحت باشا هو صاحب الدستور الأول والملقب بأبي الأحرار العثمانيين وكان مشهوراً بحبه للحرية وبمساعيه لإصلاح شئون الدولة .

وعين الشيخ طاهر مفتشاً عاماً للمعارف في الولاية . ولكن مدحت باشا عزل في ذلك الحين (١٢٩٥ هـ) وبقي رئيس ديوان الولاية في منصبه . فاستقر رأيه مع الوالي الجديد ، حمدي باشا ، على أن يتم تحقيق الفكرة المتفق عليها مع الشيخ طاهر على أساس إنشاء جمعية سميت « الجمعية الخيرية » تكون شبه رسمية . وتعينها الحكومة بالمال ، ويخصص لها أبنية وقفية وحكومية تفتح فيها المدارس ، ويكون لها مطبعة تطبع الكتب التي تنهض بالمعارف ، ولا سيما الكتب المدرسية باللغة العربية .

واستطاع الشيخ أيضاً أن يحقق أمنية من أعظم أمنائه وهي جمع الكتب الموقوفة على المساجد والمدارس في قبة الملك الظاهر بدمشق فتألفت من تلك الكتب نواة المكتبة الظاهرية التي تتبع اليوم المجمع العلمي العربي . وقد جمع فيها منذ أيام الشيخ ، بضعة آلاف من المخطوطات العربية النفيسة ، وفيها اليوم غرف للبحث والمطالعة .

ولم تستنسخ حكومة السلطان عبد الحميد في اسطنبول قيام نهضة عربية يستعان فيها بسلطة الدولة وبأموال خزانتها ، فألغت مفتشية المعارف ، وعرقلت أعمال الجمعية الخيرية . ثم عادت بعد بضع سنوات فعينت الشيخ طاهراً مفتشاً لدور الكتب في الشام ، ثم اتهمته بالاشتراك في إذاعة نشرات كانت جمعية « تركية الفتاة » تذيعها للطعن باستبداد السلطان عبد الحميد ، فنزح الشيخ إلى مصر ملجأ الأحرار .

وفي تلك المدة التي قضاها الشيخ طاهر الجزائري بالشام ، في السنوات العشرين الأخيرة من القرن التاسع عشر والسنوات الخمس الأولى من القرن

العشرين كان يتحلق حوله في دمشق صفوة المتعلمين والنهباء والمفكرين العرب ، فتألفت من جماعهم أكبر حلقة أدبية وثقافية كانت تدعو إلى تعلم العلوم العصرية ، ومدارسة تاريخ العرب وتراثهم العلمي وآداب اللغة العربية ، والتمسك بمحاسن الأخلاق الدينية ، والأخذ بالصالح من المدنية الغربية^(١) . ومن الثابت عند العارفين أن هذه الحركة التي نشأت منذ تأسيس الجمعية الخيرية ، وأخذت تتشعب وتتسع في الحلقة المذكورة ، تعد أقدم أساس وأوسع ركن قامت عليه النهضة الأدبية والعلمية في عاصمة الأمويين .

ومن الطبيعي أن يتولد في هذه الحلقة الأدبية وخارجها شعور قوى بالوضع السيئ الذي كانت عليه شعوب الدولة العثمانية عموماً ، والشعب العربي فيها خصوصاً . وقد نتج عن هذا الشعور قيام حلقة أوجعية سرية سياسية في دمشق مؤلفة من أعضاء عرب وأتراك^(٢) ، هدفها السعي للقضاء على استبداد السلطان عبد الحميد وحكمه المطلق ، بجعل الحكم شورى في الدولة ، أي بنشر الدستور المعلق . وكان لأفراد هذه الجمعية اتصال سرى برجال «تركية الفتاة» الذين قاموا فيما بعد بثورة سنة ١٩٠٨ ، وانتهوا في السنة التالية إلى خلع ذلك السلطان .

وذكر لي الأستاذ فارس الخوري وغيره من الأعضاء العرب في الجمعية أنه كان هم فيها ، وفيما بينهم ، خطة خاصة وهي العمل على إبلاغ عرب الدولة حقوقهم ضمن الرابطة العثمانية .

(١) كان من الرجال الأول في هذه الحلقة علماء مصلحون ومؤلفون معروفون كالشيخ جمال الدين القاسمي ، والشيخ عبد الرازق البيطار والشيخ سليم البخاري وغيرهم ، ثم التحق بها عدد كبير من كانوا دونهم في السن منهم رفيق العظم ومحمد كرد علي وفارس الخوري وعبد الحميد الزهراوي وشكري العسلي وعبد الوهاب المليجي وعبد الرحمن الشهبندر وسليم الجزائرى ، واشتهروا جميعاً فيما بعد بأعمالهم العلمية والسياسية .

(٢) كان في هذه الحلقة السرية ضابطان عريان من الأركان هما سليم الجزائرى وأسمد درويش الطرابلسي ، وفيها من العرب المدنيين فارس الخوري وشكري العسلي وعبد الوهاب المليحي « عبد الوهاب الإنكليزي » وغيرهم ، ومن الأتراك أمير اللواء بدرى بك ومدير المعارف حسين عوفى بك .

حلقة دمشق الصغيرة وجمعية النهضة العربية :

بعد هذه الإمامة بالحركة الأدبية والسياسية في ذلك الزمن ، آن لنا أن نتكلم قليلاً على حلقة سياسية سرية مجهولة^(١) تألفت بدمشق في سنة ١٩٠٣ من الميلاد . وكانت أعمالها بلا مراعاة من أجل الأعمال القومية الواعية المنظمة ، ومن أكبرها تأثيراً في جميع الحركات القومية العربية التالية التي كانت مغبتها استقلال الأقطار العربية عن الدولة العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨ م) .

فقد كان في الصفوف (الفصول) الأخيرة من مدرسة الحكومة الثانوية بدمشق ، وفي خارج تلك المدرسة ، شبان نهاء في ميعة الصبا يتردد بعضهم على حلقة الشيخ طاهر الجزائري ، ويصفون في انتباه وتواضع إلى ما كان يدور فيها من أحاديث ومحاورات في اللغة العربية وقواعدها وآدابها ، وفي حضارة العرب والإسلام ، وفي ذلك التراث العلمي العظيم من المخطوطات التي خلفها لنا الأجداد وفي الجهل الضارب أطنابه بالبلاد العربية ، وفي الوسائل التي يجب التوصل بها لرفع مستوى التفكير والتعليم جميعاً الخ . وسرعان ما نتج عن اتصال هؤلاء الشبان بحلقة الشيخ ، واتصال بعضهم ببعض . ظهور نزعة قومية عربية فيهم ، فراحوا يفكرون ويتناقشون في الخفاء فيما كان للعرب من أوضاع سيئة في دولة تنكر للغتهم ولقوميتهم . على حين أنهم كانوا أكثر من نصف سكان تلك الدولة .

وما عتصموا أن ألفوا حلقة خاصة نعتت بحلقة دمشق الصغيرة ، تميزاً لها من حلقة دمشق الكبيرة ، أي حلقة الشيخ طاهر الجزائري ، وكان محب الدين

(١) أشار إليها محب الدين الخطيب في مجلة « الزهراء » التي كان يصدرها في القاهرة (م ٢ ص ٤٢٠) ، وذكر لي شيئاً كثيراً عنها ، وما زلت أحتفظ بدفاتر لأخي عارف الشهابي تشمل على مساجلات ومراسلات نثرية وشعرية لبعض أعضائها .

الخطيب لولب الحلقة الصغيرة ، وأكثر شبابها اتصالاً بالشيخ وحلقته^(١) . وكان الهدف الظاهر لهؤلاء الشبان في حلقتهم مدارس تاريخ العرب وقواعد اللغة العربية وآدابها ، وتأسيس غرف للمطالعة . ومدارس أهلية لنشر العلم وأسس القومية . أما هدفهم الخفي فقد كان بعث العروبة من رقادها بتلقين شباب العرب الوسائل المؤدية إلى هذا البعث . وكاوا على صغر سنهم بعيدى النظر يرون أنه لا بد من مرور زمن طويل . في عمل متصل منظم ، قبل أن ينشأ في جمهرة العرب وعى صحيح ، وقبل أن ترسخ في نفوسهم نزعة قومية ترتكز على الإيثار والتضحية . ولذلك كانوا يقتصرون في دعوتهم السرية على برنامج سياسى محدود . وهو مضالبة الدولة العثمانية باتخاذ نظام لامركزي يضمن للعرب حقوقهم في الحكم ، ويجعل لغتهم في الولايات العربية لغة رسمية في مدارس الحكومة ودواوينها ومحاكمها .

وأخذ هؤلاء الشبان ينشرون دعوتهم في السر ويضمون إلى حلقتهم النابهي من شباب دمشق . ثم انتقل بعضهم إلى بيروت ، فراحوا يتصلون بمن كانوا يتوسمون فيهم الاستجابة لمبادئهم من طلاب الكلية الأمريكية وكلية الشيخ عباس الأزهري على الأخص .

وفي سنة ١٩٠٥ من الميلاد انتقلوا للدراسة في مدارس اسطنبول العالية ، فوجدوا فيها عدداً كبيراً من الطلاب العرب كان معظمهم ضعفاء في اللغة العربية ، جهلاء بآدابها وتراثها العلمي ، أذهانهم خالية من الفكرة القومية ، خائفين من أن يتهموا بنزعة عربية ، مؤثرين التكلم بالتركية ، متباهين بالتحدث مع الشبان الأتراك بلهجة رقيقة اسطنبولية يلفظون فيها العين ألفاً ، والحاء هاء ، والقاف كافاً وهلم جرا .

(١) كان من أعضاء الحلقة البارزين محب الدين الخطيب وعارف الشهابي وعثمان مردم ولطف الحفار وصالح قنباز وصالح الدين القاسمى . وعندما أصبحت الحلقة « جمعية النهضة العربية » دخل فيها شبان ينتمون إلى أسر مختلفة وأطلقى محب الدين الخطيب على مذكرات له يقول فيها : « وأنبه شباب الحلقة وأعلام قدرأ في نظري عارف الشهابي » .

لقد هال هذا الوضع شبابنا القوميين من حلقة دمشق الصغيرة ، فاتفق
 محب الدين الخطيب وعارف الشهابي على أن يتطوعا لتعليم هؤلاء الطلاب
 اللغة العربية وآدابها ، في يومين أو ثلاثة أيام من كل أسبوع ، على أن يبثا
 فيهم فكرة القومية العربية في حذر وتؤدة . وسرعان ما اقتسما النباء من
 الطلاب ، وراحا يدرسانهم ، ويجلبان لهم من مصر مجلة المقتبس التي كان
 يصدرها الأستاذ محمد كرد علي ، ومجلة المقتطف وجرائد اللواء والمؤيد والأهرام
 وغيرها ، وكلها كان دخولها محظوراً ، فكانت ترسل إليهم بالبريد الأجنبية^(١).

وفي السنة نفسها أسسا في اسطنبول ، ومعهما عبد الكريم قاسم الخليل
 وشكري الحندي ، « جمعية النهضة العربية » ، على أن يكون مركزها الثابت في
 دمشق حيث كان رفاقهم في الحلقة الصغيرة . وانتخب محب الدين الخطيب
 رئيساً لها في اسطنبول ثم في دمشق . ولعل هذه الجمعية الوطنية السرية تعد
 أول جمعية قومية عربية منظمة نشأت في أوانها ، فكان لها أكبر تأثير في بث
 الشعور القومي الواعي في شباب العرب . قبيل إعلان الدستور وخلع السلطان
 عبد الحميد .

ومما لا مرية فيه أن أعمال هذه الجمعية ، أو قل أعمال حلقة دمشق الصغيرة
 ومن انضم إليها من شباب العرب كانت تصدر كلها عن عقيدة وطنية راسخة .
 وخطط محكمة ، وشعور بالتبعة . وأن اتصال هؤلاء الشباب برفاقهم في
 اسطنبول واتحاد الشام وسع مجال الحركة القومية ، وكثر عدد رجالها العاملين
 الذين أسسوا بعد الانقلاب العثماني ، المنتدى الأدبي . وجمعية « العربية الفتاة » ،
 وجمعية « العهد » ، وعقدوا المؤتمر العربي في باريس ، وشاركوا في الثورة
 العربية النخ . وهؤلاء الرجال هم الرعيل الأول الذين لهم الفضل الأكبر في

(١) ما أذكره أنني عند ما ذهبت مع أخي عارف الشهابي تلميذاً في السنة المدرسية
 ١٩٠٧ - ١٩٠٨ والسنة المدرسية ١٩٠٨ - ١٩٠٩ دخلت مباءته ، وتلقيت فيها درساً في
 قواعد العربية وآدابها ، وفي تاريخ العرب وحضارتهم ، واستمعت إلى أحاديث في القومية
 العربية ونزعاتها ، وفي الوسائل الواجب اتخاذها للنهوض بالأمة العربية إلى صفوف الأمم
 الحية المستقلة .

إيقاظ الشعوب العربية من سباتها ، وفي توجيه الحركات الوطنية في الأقطار العربية التابعة للدولة العثمانية . وهم الذين داوموا على الكفاح بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨ م) ، ووجهوا كفاحهم وجهة الاستعمار الفرنسي والإنكليزي في بلاد الشام والعراق حتى استقلت . وقد هلك منهم عشرات في سبيل هذا الهدف القومي السامي . وما زال منهم بقية على قيد الحياة .

ولم يتناول أحد حلقة دمشق الصغيرة وجمعية النهضة العربية بالبحث الدقيق على ما كان لهما من تأثير كبير في الحركات القومية . ولكي نعرف شيئاً عن الوطنية التي كانت تتأرجح في صدور أعضائها ، هاكم أبياتاً من قصيدة طويلة لعارف الشهابي نظمها في فروق « اسطنبول » في السابع عشر من ربيع الآخر سنة ١٣٢٥ (١٩٠٧ م) أي في زمن السلطان عبد الحميد ، وهي موجهة إلى الأمة العربية ، ومكتوبة بخطه في دفتر كان يجمع فيه قصائده . وأشاد في هذه القصيدة بمجد العرب وسؤددهم وحضاراتهم في الماضي ، وندد بجهلهم وخنوعهم للأجنبي في الحاضر ، وأشار إلى عدد من الشعوب التي نهضت من كبوتها واستقلت ، وحث الأمة العربية على العلم وتأسيس المدارس الوطنية ، والتشبث بحقوقهم الضائعة . ومما جاء فيها عن مدارس الحكومة والمدارس الأجنبية السائرة قوله :

فدى للبنين وذى للبنات	تراها تلظى دروساً دروساً
يوثم إليها بعيد الشروق	جموع الشباب خميساً خميساً
يسوس عقولهم الأجنبي	كأننا على العجز من أن نسوساً
ويلقى علوماً تمت النفوس	ولا خير فيما يمت النفوساً
إلى أن محى ضوء آمالنا	ولم يبق من ذاك إلا نسيساً

وختمها بالأبيات الآتية في الحث على النهوض للمطالبة بحقوق العرب الضائعة :

بنى وطني آن وقت القيام ووقت البروز ووقت الزحام

وَأَنْ نَتَمَطَّى بِتِلْكَ الْقِيُودِ وَأَنْ لَا نُوْثِلَ بِأَوْطَانِنَا
 وَأَنْ نَرْفَعَ الْبُؤْسَ عَنْ أُمَّةٍ وَأَنْ نَرْفَعَ الْبُؤْسَ عَنْ أُمَّةٍ
 أَحْيَيْكُمْ يَاجُنُوداً جَرَتْ أَحْيَيْكُمْ يَاجُنُوداً جَرَتْ

مصطفى الشهابي